الأدب الهيليني

تأليف

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
[١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م]

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى من اقتاد شبابنا فى طريق الأبدية ، ونبه عقولنا ولمّا تزل فتية ، وسحر قلوبنا وهى غضة ندية ، فماط للأولى النقاب عن الحكمة الإغريقية ، فبدت فى قمة ما أنتجته الإنسانية ، وسكب فى الثانية من أشعة الأنوار العلوية ، ما جعلها خليقة بتذوق الآداب الهيلينية ، التى ليست سوى نفثات سحرية ، صيغت فى صور أسطورية .

إلى من اصطفاه الشرق لعمادة الأدب العربى فاحتذى فيه أسمى مثال ، واختارته مصر لوزارة معارفها فلم يرض لها أدنى من مرتبة الكمال .

إلى عنوان مصر اللامع ، وفخرها الساطع .

إلى ذلك العالم الكبير ، والمربى الخطير ، الدكتور طه حسين باشا أقدم هذا السفر اعترافاً له بجميل سالف الإرشاد ، وتسجيلا لفضله على الناطقين بالضاد .

أول مارس سنة ١٩٥٢

محمد غلاب

obeikandl.com

مقدمة

يجمع الباحثون والنقاد ، بل المثقفون من القراء فى هذا العصر على أن كل عمل أدبى هو حدث اجتماعى من نوع ما مادام أن الشأن فى كل انتاج أن يكون طابعه الأساسى المميز له هو اتصال معنوى بين المؤلف والقراء ، أو بين الفرد ومجتمعه الذى يعيش فيه ، وإذن فالمجتمع هو الذى يتطلب الإنتاج الأدبى الذى يستطيع أن يسيغه ويهضمه ، وإذا شئت أن تكون أكثر وضوحا فقل : إن تباين المستويات فى المجتمع هو الذى يلهم المؤلف أنواع الإنتاج دون أدنى توجيه عملى مقصود ، بل دون أى شعور من جانب أفراد هذا المجتمع ، إذ كثيراً ما يتولى توجيهَ المؤلف مجتمعٌ نموذجى صيغ على غرار مثال سبق أوصورة خيالية لمجتمع مقبل أنشأها فى ذهنه الأمل ، وتعهدها التفاؤل من غير أن يكون لها فى بيئته عين ولا أثر .

بيد أن هاتين الحالتين المثاليتين تستلزمان من جانب المؤلف تضحية كبرى قد ينوء بحمل نتائجها طول حياته ، إذ يعيش بين معاصريه غريباً لايكاد أحد منهم يفهمه أو يتذوق إنتاجه ، فإذا كان مخلصاً فى رسالته ، وفياً لأمته ، أحسّ بالحاجة الملحة إلى هذه التضحية بمنافعه الذاتية ، بل بمجده وسمعته إما فى سبيل سير الفن نحو الكمال ، وإما فى سبيل إيقاظ نوع من الشعور ولون من المعرفة لدى معاصريه ينسجمان مع شعوره ومعرفته . ومصدر هذه التضحية هو أن مهمة القائد نحو المُثل العليا ليست بالأمر الهين الميسور لكافة الكتاب ، إذ أنها تقتضى التسامى عن الإنتاج الرخيص ، وتستدعى الترفع عن ذلك التملق الوضيع المشئوم الذى يكيله بعض المؤلفين للجماهير كيلا بغير حساب عندما يقدمون اليها مؤلفات خالية من الفن الرفيع بعيدة عن الأخلاق العالية ، ولا جرم أن النتيجة الحتمية لوفرة هذه المنتجات وذيوعها هى خلق جو عقلى مسف لايعود على أحد بخير ، إذا استثنينا تلك المنافع

الفردية العابرة التى تعود على أولئك المؤلفين الأمانيين ردحا من الزمن ثم لاتلبث أن تنمحى وتصبح فى خبر كان بعد أن يهوى أربابها فى زوايا النسيان .

غير أنه لما كان الرأى العام فى الشرق قد أصبح اليوم مشغوفاً بالنهوض ، متعطشاً إلى المعرفة بحالة ظاهرة للعيان ، فقد دفعنا ذلك إلى التصميم على هذه الوثبة الجريئة التى تعتبر الأولى من نوعها فى البيئات العربية ، وهى القذف إلى لغة الضاد بهذا الإنتاج الضافى الذى يقع فى خمسة مجلدات مفعمة بالبحث فى ذلك الأدب الهيلينى العريق المتشعب الأغصان . وغايتنا التى نهدف إليها من وراء هذا المجهود هى تثقيف شباب الشرق بهذا الأدب الساحر الذى جمع إلى رشاقة الصور عمق الموضوعات ، وضم إلى متانة المعانى نبل المرامى ، والذى لم يَخْلُ من التأثر بفتنته فرد واحد من ذوى العقليات الراجحة الممتازة بدقة الرأى ورقة الطبع ، والذى دانت لجلاله رقاب الأمم ، وعنت لسلطانه وجوه الشعوب فى أوروبا منذ نشأة الدولة الرومانية إلى اليوم . ومن آيات ذلك ان مجرد ذكر اسم المنتجات الهيلينية فى البيئات المثقفة يوحى إلى نفوس عارفيها المستنيرين إعجابا عظيما ، بل احتراما ممزوجاً بحب ناشىء عن تقدير الجميل والاعتراف بهذا الفضل العظيم الذى لايجحد مهذب فى الغرب ولا فى الشرق أن العالم الحديث كله مدين به للعقل والخيال الهيلينيين . ولقد أصبح من المتفق عليه ، بل من البديهى فى كل الأوساط الأوروبية أن الفكر الهيلينى هو وحده الذى كون العقلية الغربية كافة ، وأن المؤلف أو الكاتب الذى لم يتأثر بالخيال الهيلينى فى كتابته وفى تفكيره تعد منتجاته ضربا من ضروب العامية الجافة المبتذلة ، لأن كل المستنيرين فى أوروبا يؤمنون تمام الإيمان بأن مايستمتعون به الآن من أدب رائع وثقافة خصبة ليس له إلّا منبع واحد وهو التراث الهيلينى .

ومن يعارض فى هذه الفكرة العامة فليس عليه الّا أن يلقى على الأدب الفرنسى مثلاً نظرة فاحصة يستعرض فيها منتجات عصر النهضة أومؤلفات : راسين ، وفينيلون ، وبوالو ، ولافُنْتين ، ومُلْيير وغيرهم من أعلام القرن السابع عشر ، وإذ ذاك يتبين له فى وضوح أثر

التراث الهيليني فيها بصورة بلغت غاية الجلاء ، و بالتالى لايسعه إلا أن يغض الطرف احتراما وإجلالا أمام منتجات هذه العقليات الراجحة التى لم يكن أربابها يحلمون بأنهم سيصبحون يوماً منارة عالية تنتصب فى صدر أوروبا المظلمة الجوانب والأرجاء فتبدد حنادسها وتنقذها من دياجير الهمجية والوحشية ، ولم يكن يدور فى أخلادهم أن الإلياذة والأوديسًا ، والأعمال والأيام ، والدائرة الحماسية ، ومآسى إسخيلوس ، وسوفكليس ، وأوريبيديس ، ومهازل أرستوفانيس ، وخرافات إيسوبوس ستصبح منبعاً خالداً منزها عن النضوب يغترف منه أدباء العصور المقبلة و يتخذونه نموذجاً ينسجون على منواله ، وهادياً يسترشدون بنوره المتألق الذى لايكاد ذهن الناشىء يتجه إليه حتى يتفتح خياله تفتح الزهور فى فصل الربيع ، وتنمو خصوبته نموا لاترى الإنسانية بدأً من الاعتراف بالفضل فيه لذلك الشعب العبقرى الممتاز .

و إذا كان الأمر كذلك لدى هذه الشعوب التى أضحت تسير فى طليعة ركب النهوض العالمى وقبضت على صولجان الثقافة العامة ، أفليس من دواعى الأسف أن نظل نحن جاهلين بهذا الأدب الرفيع ، أو منكمشين فى أنفسنا بعيدين عنه ، محرومين نعمة حسنه ، مسلوبين لذة سحره وفتنته ، بينما أن أسلافنا الأولين قد ساهموا فى تكوينه ووضع أسسه الجوهرية ؟ وفى هذا يقول « جُمبِرْز » :« إن العبقرية الهيلينية ـ بفضل الإعدادات الأولية التى قام بها المصريون والبابليون ـ قد استطاعت أن تظفر بوثبتها حرة من كل قيد ، وقفزت قفزة واحدة فوصلت إلى أرفع قمة ممكنة » .

ثم أليس من دواعى الأسف كذلك أن يكون هذا الجهل بالأدب الهيلينى عقبة كأداء تحول بين السواد الأعظم عندنا ، أستغفر الله ، بل بين الصفوة المثقفة منّا و بين تفهم أصول الفكر الأوروبى وطرائق البحث وقوانين الموازنة والاستنباط عند هذه العِلْيَةِ الغربية التى بينما كان أسلافنا الأمجاد منغمسين فى نور العلم والمعرفة ، كان أجدادها بدائيين يهيمون على وجوههم فى الغابات والأدغال و يصطادون الحيوانات البرية فيشوون جلودها و ينبذون

لحومها جهلا منهم بما يؤكل وماينبذ كما يقرر ذلك النزهاء من كتابهم ومؤرخيهم ؟ ولكننا ـ مع الأسف الشديد ـ قد نمنا واستيقظوا ، وغفلنا وانتبهوا ، فلما فتحوا عيونهم اتجهت أنظارهم إلى آفاق الشرق الساطعة فبهرتهم أضواؤه المتلألئة ، وسحرتهم كنوزه النفيسة فى العلم والفن والأدب والأخلاق ، وقصارى القول فى جميع نواحى الحياتين : العقلية والروحية ، وإذ ذاك لم يهملوا الفرصة التى أتيحت لهم ، بل لم يتوانوا لحظة واحدة فى العض عليها بالنواجذ والاستفادة منها بصورة نهمة مشغوفة ، وهكذا تخلفنا نحن عن الركب وفاتتنا القافلة ، وظلوا هم يَعْدون فى طريق التقدم والمدنية عدْواً متواصلا حتى سبقونا بأشواط بعيدة .

غير أن هذا التراث الشرقى لم يترك أثره فى البيئات الأوروبية إلا بعد أن عملت فيه العبقرية الهيلينية عمل النحلة فى الزهور التى تلتهمها ثم لاتزال تسلط عليها مافى طبيعتها من قوى متتابعة حتى تحولها عسلا شهياً ، ولهذا لم يكن لمن أراد فهم الفنون الجميلة فهماً صحيحاً ، وتذوقها إلى أعماقها بُدٌّ من استكناه نشأتها وتتبع تطوراتها المختلفة ، وهذا لايتيسر إلاّ عن طريق السير معها من الشرق القديم إلى إيْنيا ثم إلى أثينا ثم إلى الإسكندرية ثم إلى روما ثم إلى وارثاتها من الأمم اللاتينية الثلاث : إيتاليا ، وفرنسا ، وإسپانيا .

على أنه لو لم تدع إلى الانغماس فى بحر الأدب الهيلينى ضرورة التثقف والمعرفة وإدراك الفنون الجميلة وتذوقها ، لدعا إلى ذلك سحره الطبيعى وفتنته الفطرية ، ووفرة اللذائذ العقلية والروحية التى تغمر السابحين فوق صفحته الصافية إلى حد لاتدع معه لشأن آخر من شؤون الحياة أدنى نصيب ، ولم لا ؟ أفلم يسحر اسم « هوميروس » فى الماضى ، ولايزال وسيظل يسحر كذلك جميع العقليات الممتازة من مختلف الأمم وفى متباين العصور ؟ أوليس من آيات ذلك مايكتبه « جوت » «Goethe» سيد عباقرة أدباء ألمانيا بقلم « ڤرتر » «Werther» إلى صديقه فيقول : « أنت تسألنى عما إذا كان ينبغى أن ترسل إلىّ كتبى ، وأنا أرجوك باسم السماء أن تعفينى من هذا العبء ، إذ لاأريد بعد الآن أن يقتادنى أو يشجعنى أو يهيجنى شىء ، وإنما أنا فى حاجة إلى أغنية مهدئة مسكنة ، وقد وجدت فى هوميروس هذه الضالة المنشودة بكل مميزات انسجاماتها » .

وإذا غادرنا ألمانيا إلى فرنسا التقينا فيها بمثل أبرز وأعمق وأفصح من جوت فى الإشادة بهذا الأدب الفاتن الرفيع ، وهاك على سبيل التمثيل : رينان «Renan» فانظر ماذا يقول فى صلاته على أكروبوليس [١] «Acropolis» مبتهلا إلى أثينيه :

« أيها النبل ، أيها الجمال الحقيقى البسيط ، أيتها الإلاهة التى ليس معنى عبادتها سوى »
« العقل والحكمة نفسيهما ، أنت التى معبدك ذاته درس أبدى فى الضمير والإخلاص ، »
« إنى وصلت متأخراً إلى عتبة أسرارك . . . أنت وحدك الشباب يا كورا [٢] ، وأنت »
« وحدك الطهارة ياعذراء [٣] ، وأنت وحدك البريئة يا هِجِيا [٤] ، وأنت وحدك القوة »
« ياانتصار [٥] ، إن لديك كل مايفتقد عند « آريس » يا أريا [٦] ، والسلام غايتك »
« ياأديا [٧] ، أيتها الديمقراطية أنت التى عقيدتها الأساسية هى أن كل خير يأتى عن طريق »
« الشعب ، وأن كل مكان لايوجد فيه شعب يلهم العبقرية ويغذيها لايوجد فيه شىء . »
« علمينا كيف نستخرج الماس من الجماهير الملوثة . . . . ياقوة زوس ، أيها القبس الذى »
« يشعل النار ويحفظها لدى الأبطال والعباقرة إصنعى منا روحانيين يصلون إلى حد الكمال . »

وإذا كانت أوروبا قد تأثرت بهذا الأدب الهيلينى البديع ، أفليس الشرق — وهو مهد الشعر الساحر الأخاذ — أولى وأجدر بأن يفتتن بهذا التراث الخالد فيضمه إلى إنتاج أسلافه ليكون من ثمار الجنسين مزيجاً صالحاً لتغذية الشباب وإخصاب أخيلته ودفعه إلى ميادين الإجادة والإتقان ؟

بان إذن مما تقدم أنه يجب على كل مثقف شرقى يبغى رقى الناحية العقلية فى بلاده أن يعمل على نشر المنتجات الهيلينية فيها وجعلها فى متناول شبابها ، فإن ذلك هو الوسيلة المثلى

---

(١) أكروبوليس قلعة فى أثينا القديمة فوق صخرة يبلغ ارتفاعها نحو مائة وخمسين قدماً وهى مكتظة بالآثار والمعابد وفى قمتها أجمل هذه المعابد على الاطلاق وهو پرثينون «Parthénon» معبد الإلاهة أثينيه
(٢) كورا أى حامية الفتيات . (٣) العذراء أى الفتاة التى لم يمسها أحد . (٤) هجيا أى الصحة .
(٥) انتصار ومعناه واضح . (٦) أريا أى الشجاعة الحربية (٧) أديا أى السلام وكلها أسماء تطلق على أثينيه إشارة إلى اختصاصاتها المتعددة وهجيا وإن كانت إلاهة أخرى مختصة بالصحة وهى حفيدة أپولون وابنة أسكليوس إلاه الطب إلا أن هذا الاسم قد أسند إلى أثينيه وغلب عليها حتى طغى فى بعض الأصقاع الهيلينية على الإلاهة المختصة لصغر مكانتها بازاء أثينيه .

لتحقيق النهضة لدى الشعوب الطامحة إلى حياة كريمة متوثبة ، والكلفة بمسايرة الأمم الراقية فى هذا العصر الذى محور مميزاته الثقافة والعرفان .

بيد أنه يجب على من يعرض لدراسة التطورات الأدبية أوالخلقية فى شعب من الشعوب من خلال آدابه أن يعنى قبل كل شىء بتحديد منشئه وحالته الاجتماعية قبل أن يُنْتِج هذا الأدب ، وأن يتبين ما هى مميزاته العنصرية ، وإلى أى حد من التطور والرقى بلغت هذه المميزات فى مبدأ إنتاجه ذلك الأدب ، وها نحن أولاء سنبذل قصارى جهدنا فى إماطة النقاب عن هذه المميزات الضرورية لفهم الأدب الهيلينى ، وتلك المحاولة هى التى ستكون طليعة بحوثنا فى هذه المؤلفات .

لقد سلكنا فى هذا الكتاب ذات المنهج الذى سلكه كل كبار مؤرخى الأدب فى عصرنا الحاضر ، والذى نستطيع أن ندعوه بمنهج الحياد ، وذلك النوع من البحث هوالذى اصطلح الناقدون على تسميته بالروح التاريخية ليعارضوا به الروح القاعدية التى كانت مألوفة فى العصور الغابرة . ومجمل ذلك أن هذا اللون الجديد من الكتابة قد خلا من كل نية تهدف إلى موازنة الإنتاج الأجنبى المعد للدراسة بنموذج مثالى يختاره الباحث ، أو موازنته بأدب قومى خاص إذ أن المنهج العلمى الحقيقى هو ألاّ يصطحب الدارس معه أثناء دراسته أى مثال قد أعده من قبل ، أو قد استقر فى ذهنه استقراراً طبيعياً ، وألاّ يُبْقِىَ فى نفسه أدنى ميل إلى ثناء أوهجاء ، ولكنه يتجه إلى بحثه بعقل حر ونفس متعطشة إلى معرفة الحقيقة ، مشغوفة بالفن أكثر من شغفها بالنقد والحكم . ومنشأ ذلك أنه لما كان لكل جنس من الأجناس البشرية مواهبه الخاصة التى تميزه عن غيره ، ولكل عصر طوابعه التى تفرق بينه وبين ما عداه من العصور ، فقد كان فى مقدمة واجبات الباحث أن يتعقب هذه المواهب وتلك الطوابع إلى أن يظفر بها بين سطور المنتجات التى يدرسها فيقدمها إلى قرائه مليئة بالحياة والقوة والوضوح حتى يجعلها فى متناول عقلية الرأى العام بعد أن تكون قد كشفت له عن ذاتها وأذاقته عذوبة أسرارها . وإذ ذاك وبعد الانتهاء من هذا المجهود الوجدانى الرائع الذى

يبذله الباحث فى ذلك العمل البالغ أسمى حدود الدقة ، وهو العرض النزيه ، إذ ذاك فقط يستطيع أن يحدد القيمة الحقيقية لتلك المنتجات التى يقوم بدراستها ، و بعبارة أصرح وأوضح يستطيع تعيين مكانة تلك المنتجات من صفوف الأدب والفن ، ولا جرم أن هذه الخطة هى إحدى طرائق النقد كما أفهمه وكما عبر عنه الناقد الفرنسى الممتاز سانت بوف بأنه يتكون من دراسة موهبة كل مؤلف على حدة حسبما تقتضى طبيعته الخاصة فإذا تمت للباحث هذه الدراسة التحليلية ، وجب عليه بعد ذلك أن يعرض هذه المواهب كما بدت له مفصلة وأن يصورها أصدق تصوير محاولاً إبراز خصائصها الجوهرية ومميزاتها الأساسية . وعلى ضوء هذا يتيسر له وضعها فى مكانتها من صفوف الاعتبار الفنى المجرد من كل شوائب العمل وعلائق الانحياز والمحاباة[1] .

والسبب الذى يوجب سلوك هذا النهج هو أنه كما فى الطبيعة حقب إزهار ونضوج وذبول، كذلك يوجد فى الأدب فى عصوره المتعاقبة مواهب متباينة تختلف قوة وضعفاً باختلاف الظروف والأحوال ، وكذلك توجد عوامل متنافرة تترك فى الإنتاج الأدبى من التضاد والتعارض ما يلتئم مع سلطان تلك العوامل ، ولا شك أن هذه الأحوال كلها تحتم على مؤرخ الأدب ألا يغفل شيئاً من هذه الملاحظات ، ومن أجل ذلك السبب ذاته أفسحنا فى مؤلفاتنا هذه أمكنة واسعة لأفذاذ عباقرة الهيلين كهوميروس وهزيودوس ، وسوفكليس ، وأوربيديس ومن إليهم .

ولعل مما تنبغى الإشارة إليه هنا من المنهج الذى رسمناه لأنفسنا أننا عنينا بترجمة نماذج من النصوص فى جميع العصور المختلفة ، وسر هذا أننا نعلم علم اليقين أنه عن هذا الطريق وحده يمكن إنماء حب ذلك الأدب الفاتن فى قلوب قرائه ، وكل ما نرجوه فى هذا الصدد هو أن نكون قد وفقنا إلى حسن اختيار تلك النماذج ، إذ مما لا ريب فيه أن البحوث المصرية العميقة التى تنتظر من ورائها فوائد محققة ، والتى لهذا تجب الإحاطة بها ولا يصح إهمالها هى

(1) Sainte - Beuve, Causeries du Lundi t.xII, P.191

دائماً مصحوبة بنصوص تعد العقول وتهيئ النفوس للدراسة المباشرة وتشد العزائم إلى تتبع كل شيء فى موطنه الأصلى .

وبهذه المناسبة لا يسعنا إلا أن نبدى أسفنا على أننا لم نستطع حتى الآن أن نترجم إلى لغة الضاد نصوص الأدب الهيلينى كاملة ، ونرى ازاماً علينا للحق و برًّا بأوطاننا العربية أن نتقدم بأبهى صور الحمد وأصفى ألوان الثناء إلى حضرة صاحب المعالى الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين باشا على أنه كان — بعد الأستاذ البستانى — طليعة الذين نقلوا إلى اللغة العربية الحديثة جانباً من هذا الأدب الرائع نقلا ذا قيمة أدبية ممتازة ، لأن كل الذين حاولوا البروز إلى جانبه فى هذا الميدان كانوا أقزاماً حول عملاق عظيم إذ أن هناتهم — أستغفر الله — بل سقطاتهم تجل عن الحصر وتَدِق عن الإحصاء فمن خطأ مزعج فى الترجمة إلى خلط معيب فى الوقائع والأحداث ، إلى جهـل شائن بالأساطير ، إلى بعد شاسع عن الأساليب الأدبية الراقية ، إلى خلو مخجـل من الاصطلاحات الفنية ، إلى مجافاة صريحة للروح الهيلينية ، و بالإجمال لم يكن ما ترجمه هؤلاء السادة مشرفا ، بل لم يكن مقبولاً يحسن السكوت عليه كما يقول النحاة .

وفوق ذلك ، قد كان هذا المربى العظيم أول الذين غرسوا فى نفوسنا منذ فجر الشباب فى الجامعـة المصرية القديمة حب الهيلين وفلسفتهم وأساطيرهم وشعرهم ونثرهم ومآسيهم ومهازلهم بهيئة رسخت صورتها فى تلك العقول الناشئة فحولت استعداداتها الـكامنة وقواها الهيولانية إلى ملـكات فعلية عرفت — بعد أن وجهت توجيهـا مستقيماً إلى دراسة تلك المنتجات — كيف تلتهم هذه الزهور اليانعة فتهضمها ثم تحولها إلى أغذية صالحة للطبقات التى تليها من الشباب . والفضل الأول والأخير فى هذا التوجيه راجع إلى ذلك الأستاذ الحـكيم .

أما وقد أشرنا هنا إلى الاعتراف بجميل التوجيه والإرشاد فقد نرى من الحق علينا للعلم والفضيلة أن نبعث بموفور الشكر إلى أولئك المؤلفين الأعلام الذين استرشدنا بهدى مؤلفاتهم من كتاب الغرب الأماجد ونخص من أفذاذهم بالذكر الأساتذة الفرنسيين الأجلاء ألفريد

وموريس كروازيه «Alfred et Maurice Croiset» وأمبير وبرجان «Humbert et Berguin» والأساتذة العظماء الألمانيين « أوتفريدمولير » «Otfried Müller» و « برناردى » «Bernhardy» و « برج » «Bergk» على ما بذلوه من جهود جبارة فى عرض هذا الأدب الهيلينى المترامى الأطراف ، وتحليله وبحث نواحيه المختلفة ، وتعقب مادار حوله من جدل ونقاش ، وتحقيق أحداثه ووقائعه بقدر الطاقة البشرية .

وأخيراً نحن نأمل أشد الأمل ، ونرجو أقوى الرجاء أن نكون قد وفقنا فى هذه الخطوات التى امتزج فيها الحذر بالجرأة ، والاحتياط بالوثوب ، والتريث بالإقدام ، ونبتهل إلى السماء أن تتفضل علينا بالمعونة فى هذا السير الذى بدأناه واعتزمنا مواصلته نحو الكمال متمنين المساهمة فى العمل على تعميم تداول هذا الأدب الساحر فى أوطاننا العربية كافة لنسد ما فى جوانب أدبنا من ثغرات ، ونكمل ما فى أطرافه من نقص ، ولنجارى أمم الطبقة الأولى فى النهوض ، ولا يفوتنا أن نعلن فى صراحة قبل الانتهاء من هذه العجالة أن الكمال من كل وجه هو لله وحده ، وأن البشرية كلها معرضة للخطأ والنسيان ، وأننا لهذا على أتم استعداد لتقبل النقد النزيه النبيل فى رحوبة وطلاقة وابتسام ! !

القاهرة فى يوم السبت ٥ يناير سنة ١٩٥٢ — محمد غلاب

منشأ الأمة الهيلينية وتسميتها

تحدثنا أسطورة هيلينية قديمة أن الشواطئ القارية من بحر إچيا وسواحل آسيا الصغرى كانت مأهولة فى الأزمان الغابرة بسكان من برابرة الشمال ثم استعمرها قوم من المصريين والفينيقيين فنقلوا إليها مدنيتهم العريقة وهذبوها ، بل إن هذه الأسطورة قد اشتملت على أشودة تقول إن الأثينيين مدينون بتأسيس مدينتهم الجميلة لـ « كِكْرُبْس » المصرى القديم . وهناك أسطورة أخرى تنبئنا بأن « ذانا ووس[1] » ملك مصر هو نفسه الذى بنى مدينة أرجوس التى كانت فى عهد حرب تروادة أهم المدن الهيلينية جمعاء .

أما ثيبة فالهياين مدينون ببنائها لـ « كَدْموس » الفينيقى الذى أسسها بمساعدة أثينيه إلاهة الحكمة وفى المكان الذى عينته له. هذا هو حديث الأساطير القديمة ، أما التاريخ فلم يقل كلمته الفاصلة عن أصل هذه الأمة قبل استقرارها فى شبه جزيرتها ، بل ترك الباحثين يتخبطون يميناً وشمالاً فى الحكم على العصور التى سبقت عصر الاستقرار . وكل ما قدمه إلينا من معونة على فهم منشئها هو أنه أنبأنا بأن تلك الأصقاع كانت ، فيما قبل ، مأهولة بجنس يدعى بالپيلَغيوس وقد اختفى اليوم تماماً ، وكان هذا الجنس يشغل أيضاً آسيا الصغرى و إيتاليا ، وقد بقى من آثاره عدد من المبانى الصخرية قد صف بعضها فوق بعض بدون مِلاَط ، وأنه حوالى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح نزح إليها الهيلين

---

(١) ذاناووس هو أحد ملكى مصر الشقيقين وكان له خمسون بنتاً ولشقيقه خمسون ابناً ، فتزوج الأبناء الخمسون بنات عمهم . وفى ليلة العرس قتلت تسع واربعون منهن أزواجهن ، فحكم عليهن الآلهة بملء إناء من غير قاع لايسترحن حتى يملأ . وقد أصبح المحدثون اليوم يضربون المثل بهذه الأسطورة لمن يقضى حياته كلها فى عناء أو فى عمل متواصل فيقولون : إنه كبنات ذاناووس ، أو إن عمله كإناء الذاناووسيات .

وهم أحد الأجناس البشرية التى كانت تسكن فى زمن غابر وادى الدانوب وقد انقسموا إلى أربع قبائل وهى :

(١) اليُلْيان : وقد استقروا فى غربى إغريقا القارية ووسطها . ومنهم ، أخيلوس و ، أوديسُّوس ، و ، ينستور ، و ، فيلُكْتيتيس ، و أيَّاس .

وحوالى القرن الحادى عشر زحف فريق منهم إلى سواحل آسيا الصغرى واحتلوا الجزء الشمالى منها .

(٢) الأكيان : وقد احتلوا الجزء الجنوبى من إغريقا الحالية المعروف بالپيلوپونيزيا وإليهم يرجع أكبر الفضل فى تأسيس المدنية الهيلينية الساطعة . ويظهر أنهم قد حاولوا غزو مصر فى عهد مينفتاح الأول حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر . ومن أبطالهم الأولين « أجاممنون » و «مينيلاؤوس » وقد حدثنا « استرابون » المؤرخ أنهم قد أعدوا عدة للهجرة فى عهد « أورستيس » بن أجاممنون . وقد تحققت هذه الهجرة فى عهود أخلافه إلى جزائر بحر إچيا وآسيا الصغرى . ولما هاجم الدُّريان فيما بعد الپيلوپونيزيا ، نزح كثير من المقيمين منهم فيها إلى آسيا فانضموا إلى مواطنيهم وأسسوا بها مستعمرة قوية خصبة ، وقد تشرد فريق منهم والتجئوا إلى اليُنيِّان فى أثينا والذين بقوا منهم فى بلادهم صاروا عبيداً للمستعمرين مع أن الغلبة كانت لهم إلى حد أن كلمة الأكيان فى شعر هوميروس كانت مرادفة لكلمة الهيلين .

(٣) اليُنيان : وقد نزلوا فى الجنوب الشرقى حيث أسسوا أثينا وما حولها . وعند ما أوى إليهم اللاجئون من پيلوپونيزيا أمام الفتح الدُّريانى ضاقت بهم بلادهم فارتحل فريق منهم كذلك إلى آسيا الصغرى سعياً فى طلب العيش وأسسوا فيها مع غيرهم على خليج أزمير مستعمرة نسبوها إليهم لغلبتهم على بقية الأجناس الأخرى المساهمة معهم فى تأسيسها وهى مستعمرة إيُنيا ، بل إنهم قد أطلقوا اسمهم على جميع المستعمرات الهيلينية فى آسيا الصغرى .

(٤) الدُّرْيان : وقد نزلوا أولاً فى الشمال المركزى من إغريقا . وحوالى القرن الحادى عشر زحفوا إلى پيلوپونيزيا وطردوا منها الأكيان واحتلوها واتخذوا اسپرتا عاصمة لهم ، فتألق نجمهم فيها وزعموا أنهم من نسل هيرَكْليس ، وفيما بعد بعثوا حملات إلى رُودس ثم إلى آسيا الصغرى ، فاحتلوا الأولى وأسسوا فى الثانية مع اليُنيان مستعمرة إيْنيا كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

ظل هذا الفريق الذى استقر بأثينا يطلق على نفسه تارة اسم « اليُنْيان » وهو اسم قبيلتهم الأولى ، وتارة أخرى اسم الهيلين وهو اسم الجنس العام الذى تفرعت منه الشعب الأربع ، وقد حملهم الطغيان على محاولة الاختصاص به . وأيا ما كان فقد جعلوه فيما بعد اسم جد اسطورى ينتسبون إليه ويزعمون أنه حفيد « پرومثيوس » الذى كبله زوس كبير الآلهة بالأغلال ، والذى سنراه فيما بعد حين نعرض للأساطير والمآسى .

أما كلمة إغريق ، فإن المؤرخين رأوها للمرة الأولى فى مؤلفات أرسطو ، ولكنه كان يقصرها على قبيلة صغيرة كانت تقيم فى الساحل الغربى من إغريقا الحالية . ولما كانت هذه القبيلة أقرب الشعوب الهيلينية إلى إيتاليا فقد أطلق الرومان اسم الإغريق على الهيلين جميعاً وقلدهم من أتوا بعدهم فى هذا الإطلاق .

لا يحدثنا التاريخ — فيما عدا هذا — بشىء أكثر من أن ذلك الشعب لا بد أن يكون قد اتصل بشعوب أخرى سبقته بأشواط واسعة إلى الحضارة كالأمة المصرية مثلاً ، فأنارته بمعارفها ، وغمرته بمدنيتها .

أما فلسفة التاريخ فإنها تؤكد لنا أن هذه الأمة تشتمل على عناصر خاصة تختلف عن غيرها من عناصر الأمم القديمة ، وفوق ذلك فإن لبيئتها الطبيعية التى تتكون من المناخ والموقع الجغرافى أثراً عميقاً فى خيالها وتفكيرها ؛ ولولا اجتماع هذه الميزات لها لما هضمت كل ما وصل إليها من المدنيات السابقة وطبعته بطابعها الشخصى ، وأعملت فيه خيالها الواسع ، واستخرجت منه تلك الكنوز الثمينة والدرر الغالية من فلسفات عميقة ، وأخلاق

سامية ، وآداب رائعة ، وإلا فلماذا لم تنتج هذه المعارفُ فى ربوعها التى نشأت فيها مثل هذه النتائج الباهرة التى أنتجتها فى ربوع أثينا ؟ .

ميزات الهيلين وعيوبهم

يمتاز الشعب الهيلينى بالذكاء النادر ، والدقة العميقة ، والتفكير المتزن ، والخيال الخصب ، والحيوية والنشاط والانعطاف نحو سرعة العمل . وفى هذا يقول أرسطو :

« إن الشعوب الشمالية قد وهبت نصيباً من قوة الإرادة ، ولكن حظها من الحيوية قليل ، والشعوب الأسيوية منحت شيئاً من الحيوية ، ولكنها سلبت قوة الإرادة ، أما الإغريق فقد جمعوا القوة المعنوية إلى الذكاء [1] » .

ومن أهم ميزاتهم أيضاً المرونة التى بلغت لديهم حد القدرة الكاملة على التصرف فى الأهليات والاستعدادات التى هى عند غيرهم فطرية جامدة بحيث لا يكلفهم تغيير المهن أدنى مشقة ، بل إنهم يستطيعون تغيير ميولهم نفسها . وقد روعت هذه المقدرة عقلاء الرومان عند ما أحسوا أن استعمارهم السياسى لبلاد الهيلين لم ينقذهم من خطر استعمار الهيلين الأدبى لروما ، وقد رسم لنا المؤرخ « چو ڤينال » فى مرارة ولوعة صورة أمينة لمرونة الهيلين ، ووصفهم بأنهم استعمروا روما استعمارا خطراً لصلاحية كل فرد منهم لأن يكون نحويا وخطيباً ومهندساً ورساما وساحراً وطبيباً وهلم جرا [2] .

ومن ميزات الهيلينى أنه كان دائما يكبح جماح إحدى الملكات بضدها حتى لاتطغى ملكة على أخرى فيجعل الفكر يتغلغل فى الخيال ، والتعقل يمتزج بالعاطفة ، والتأمل ينحدر إلى الهوى ولا تراه أبدا ينحاز بكليته إلى جانب واحد .

ويلاحظ الأستاذ كروازيه أن هذا التوازى فى الملكات هو الذى كان السبب فى

---

(1) Aristote, Politique, L. vII , ch. 7.
(2) AetM. Croiset, Histoire de La Littérature grecque, T. I, P. 4.

الاعتـدال والانسجام اللذين يلتقى بهما القارىء فى المؤلفات العظيمة فى الأدب والفن الهيلينيين .

ولعل هذه المرونة كانت نتيجة دروس الطبيعة التى ألقتها عليهم بتأملهم الطويل فى مظاهرها المتباينة ، وسماعهم أحاديثها بأساليب متنوعة .

ويرى الأستاذ كروازيه عكس هذا الرأى ، فيقرر أن الحيوية والمرونة الفطريتين هما اللتان دفعتا الهيلين إلى ملاحظة مظاهر الطبيعة المختلفة .

ومن هذه الميزات كذلك ميلهم إلى الاجتماع ، إذ آمنوا منذ أوائل عهودهم بالعمران بأن الإنسان لا يستطيع الحياة بدون تبادل المنافع الأساسية مع أخيه الإنسان . ومنها أيضاً حب الاستطلاع الذى لا يكاد ينضب والذى يتمثل بأجلى مظاهره فى جميع أفرع حياتهم العلمية والأدبية بدون استثناء . فإذا عرضوا للفلسفة أو الأخلاق أو التاريخ أو الجغرافيا أو الرياضة أو الطبيعة رأيت حب الاستطلاع فى كل ما يعرضون له ممثلاً بأدق معانيه ، وهذا هو السر فى أنهم سبقوا غيرهم إلى وضع كبريات المشاكل على بساط البحث ، وإلى تعيين أسمى المناهج الممكنة لحلها .

أما عيوبهم فمن أهمها التلون الذى يزعمون أنه مهارة والذى هو خَطِرٌ أشد الخطر على الأخلاق والآداب ، إذ هو ينتج محو المبادئ فى الأولى ، وانعدام الثقة فى الثانية . ومنها كذلك المغالاة فى استخدام الحيلة والمكر للنجاح فى مشروعاتهم والانتصار على خصومهم ، وليس هذا عيباً إلا فى نظر الأخلاق السامية ، أما السياسة الاجتماعية فتعده فى طليعة المحامد التى تثبت لصاحبها التفوق .

لهذه الميزات بطرفيها الحسن والسيء كانت دراسة الأدب الهيلينى قادرة على تكوين عنصرين خطيرين من عناصر التربية الإنسانية ، وهما عنصرا التربية العقلية والتربية الخلقية .

أللغة الهيلينية ولهجاتها :

أللغة الهيلينية غنية فى مترادفاتها ، رشيقة فى تعبيراتها ، مرنة فى قواعدها ، قديرة على أن تتسع للتضادات والمتناقضات من أفانين الحياة المختلفة ، وضروب الإنتاج البشرى المتباينة ، فهى كما وسعت الفلسفة بأنواعها : المادى والروحى ، والحسى والعقلى ، واليقينى والارتيابى ، وسعت كذلك الأدب الحماسى والغنائى والهجائى ، والتمثيل : مآسيه ومهازله ، والتاريخ الصحيح ، والأساطير الشيقة الساحرة ، والخرافات المفعمة بالحكم القيمة ، و بالعظات النافعة إلى غير ذلك مما يدل دلالة ناصعة على أنها لغة جديرة بالعظمة والخلود . وفوق ذلك فإن لها على السمع رنيناً موسيقياً لذيذاً .

أما لهجاتها الأدبية فهى خمس : الأولى اللهجة الينيانية ، و بها كتبت الإلياذة والأوديسا ومؤلفات هِز يودوس و بقية منتجات العصر الينيانى ومبدأ النثر ، وهى أعذب اللهجات وأصفاها لغلبة الحروف المتحركة فيها .

والثانية اللهجة اليليانية ، و بها كتبت أناشيد « ألكيوس » و « سافو » وهى أقل عذو بة من سابقتها .

والثالثة اللهجة الدُّريانية ، وهى لهجة الشعر الموسيقى ولاسيما شعر الجوقات ، وتمتاز بالقوة التى تصل أحياناً إلى حد الجفاف ، ولهذا ظل أثرها يسود بعض النواحى الأدبية حتى فى العصر الأثينى ، إذ جعل المسرحيون يكتبون بها أدوار جوقاتهم فى المآسى والمهازل .

والرابعة اللهجة الأتيكية وهى مشتقة من اللهجة اليُنْيانية بعد أن تطورت وصارت أكثر قوة وتركزا ، وقد كتبت بها منتجات العصر الأثينى من شعر ونثر .

والخامسة اللهجة العامة ، «Koinè» وهى مأخوذة من اللهجة الأتيكية بعد أن فقدت كثيراً من صفائها . وقد كتب بها النُّثَّار الذين ظهروا بعد حملة الاسكندر .

خصائص الأدب الهيليني :

لانريد أن نعرض فى هذه الفصول الوجيزة إلا لأحد جوانب هذا الخضم الهائل الذى اغترف منه كثير من الأمم : قديمها وحديثها ماجعلها تشيد بمدنيتها وتباهى بها نظيراتها من الأمم المعاصرة ، لأننا لو حاولنا الإحاطة بكل ماأنتجته العقلية الهيلينية لأفنينا ماقدر لنا فى الحياة من أجل قبل أن ندرك هذه البغية العالية ، وهذا الجانب الذى سنقتصر عليه هنا هو الجانب الأدبى .

يمتاز الأدب الهيليني بثلاث ميزات جوهرية لفتت أنظار دارسيه منذ العصور القديمة ، وهى ميزات الابتداع والوحدة وسيادة العقل كل نواحى الإنتاج ، ولعل السبب فى وجود الميزتين الأولى والثانية فى هذا الأدب هو أن الهيلين ـ مع تعدد الشعوب التى عرفوها واختلطوا بها ـ لم يحاولوا أن يستفيدوامن آداب الأمم الأخرى التى فاقتهم فى المدنية وسبقتهم إلى الثقافة كما استفادوا من علوم تلك الأمم ومعارفها ، فظل أدبهم بعيداً عن التأثر بالآداب الأجنبية و بقيت عناصره متجانسة متلائمة ليس فيها دخيل يشوه جمالها ، أو غريب يزيل انسجامها . وليست هذه هى حالة كل الشعوب القديمة ، فالرومان مثلا تركوا أنفسهم يندمجون فى الآداب الهيلينية حتى لايكاد أحد يعرف لهم أدباً مبتدعاً مستقلا عن الهيلين إلا الهجاء الذى برع فيه أدباء روما فى العصور القديمة .

أما الميزة الثالثة ، وهى سيادة العقل فى كل شىء ، فهى أن منتجاتهم ـ بما فى ذلك الجوانب الخيالية منها ـ ليست من النوع الخفيف التافه الخارج عن أساليب الفكر المستقيم ، وإنما أخيلتهم ترفرف دائماً منحصرة فى إطار العقل الراقى وداخل حدود الحكمة السامية وتعتبر الأوديسا إحدى اللوحات الأمينة الناطقة بهذه الميزة ، إذ ليس عن طريق المصادفة أن نلقى بطلها يتخذ التبصر والحكمة والحذر والاحتياط درعه المتين وحصنه الحصين فى كل خطوة يخطوها ، وفى كل عبارة تنفرج عنها شفتاه ، وليس من المصادفة كذلك أن نشاهد

أثينية ـ وهى إلاهة الحكمة ـ تقوم فيها بالدور الأول من بين الآلهة ، فتعلن بهذا المظهر أن منزلة الصدارة هى للعقل وحده على كل ماعداه من اعتبارات الوجود . وليست هذه الظاهرة خاصة بمنتجات هوميروس فحسب ، بل إن جميع كتاب الهيلين وشعرائهم فى مختلف النواحى الثقافية متفقون على أن الإنسان الذى يهدف إلى فهم الكون وكشف خفايا الوجود « Homo Sapiens » قد تخلص من الإنسان العملى الذى يحصر نفسه فى استغلال هذا الكون واستخدامه فى منافعه الواقعية «Homo Faber» .

ومن أبرز ماتبدو فيه هذه الظاهرة الجليلة قول أنكساغوراس : «إن العقل هو الملك» «Nous basileus» ولعل هذه الميزة العظمى هى أساس الإعجاز الهيلينى الذى طالما تحدث عنه رينان وأمثاله من المحدثين .

ولا ريب أن أمة هذا شأن أدبها كفيلة بأن تنجب أرسطو مؤسس قانون المنطق الذى عصم أذهان الخاصة من البشرية عن الخطأ فى الفكر فيما يرى الكثيرون[1] .

العصور التى أنشىء فيها هذا الأدب

اختلف مؤرخو الآداب القديمة فى تقسيم عصور الأدب الهيلينى ، وأجود هذه الآراء عندى هو أنه ينقسم إلى خمسة أعصر وهى : (١) العصر الينيانى . (٢) العصر الدريانى . (٣) العصر الأثينى . (٤) العصر الاسكندرى . (٥) العصر الرومانى .

فأما العصر الأول ـ وهو الينيانى[2] ـ فهو يمتد من القرن العاشر إلى القرن السابع ، وقد نشأت منتجاته فى إيُنيَا ، وهو ينقسم إلى قسمين يتمثل أولهما فى قصائد رائعة تقص

---

(١) احترزنا بهذا التعبير عن آخرين من الباحثين لايرون هذا الرأى ، ونحن منهم ، إذ نقرر أن المنطق قد نشأ فى الصين قبل أن يعرفه أرسطو . وإذا أردت تفصيل ذلك ومستنداته فارجع إلى كتابنا (الفلسفة الشرقية) .

(٢) اعتاد بعض كتاب العربية أن يعبروا عن العصرين : الينيانى والدريانى باليونى والدورى ، أما نحن فقد نسبناها عمداً إلى الشعب الأوربى خلافاً لتعبيرنا فى كتبنا الفلسفية ، وذلك دفعاً للبس ، وطرداً للنطق بأسماء الشعب الأربع : الينيان والبليان والدريان والأكيان على وتيرة واحدة .

سير الأبطال والمجاهدين ، وتروى أنباء العظماء والشجعان ، وتسرد آثار الآلهة من خير وشر، ولكن هذه المنتجات قد اندثر منها الشيء الكثير ، بل لم يبق منها إلا درتا هوميروس الخالدتان : الإلياذة والأوديسّا ، والدوائر التروادية. ولاريب أنه لايتصور باحث دقيق أن تكون هذه القصائد أول ماأنتجته القرائح الهيلينية من شعر حماسى . وإذاً ، فلابد من الإيمان بأنه قد سبقها كثير من القصائد البطلية عفت معالمها ظلمة العصور والجهلُ بالقراءة والكتابة . ولما انتشر هذا اللون من المنتجات أثر فى سكان إغريقا القارية فنشأ من ذلك نوع آخر من الشعر أطلق عليه النقاد اسم الشعر التعليمى مثل منتجات هِزْيوذوس والتيوجونية ، وقد أحدث هذا النوع فى الحياة الأدبية تقدماً غير قابل للجحود .

أما العصر الثانى ـ وهو العصر الدريانى ـ فهو يمتد من القرن السابع إلى القرن الخامس وفيه ظهر الشعر الموسيقى وقد طبعت منتجاته بطابع من الرقى لم يسبق له مثيل ، إذ ظهرت فيه للمرة الأولى العواطف الشخصية ، والأحكام الوثيقة على نواحى الحياة المتباينة ، وأعلن فيه المفكرون آراءهم فى الأساطير القديمة فى جرأة وإن كانت ممزوجة بشيء من الاحترام . وفى مبدأ هذا العصر قد ظهر القسم الأكبر من الشعر الدُّريانى ، وفى أواخره بدأ النثر يأخذ مكانه تحت الشمس و بدت طلائع الفلسفة .

أما العصر الثالث أو الأثينى فهو يمتد من أوائل القرن الخامس إلى أواخر القرن الرابع ، وفيه حملت أثينا لواء الثقافة العقلية وأخذت تبعث من أشعة أضوائها إلى معاصراتها من المدائن القديمة ماهو قمين بتهذيبها وتثقيفها . وما ظهر من منتجاتها فى هذا العصر كان كافياً لتخليد اسمها وتسجيل فخرها على صحيفة الزمن بهيئة لا ينال منها تتابع العصور ولا يمحوها تبدل الظروف والأحوال . وليس أدل على ذلك من أن كبار كتاب أوروبا فى العصور الحديثة قد اغترفوا أروع ما كتبوه من أثينا بعد مرور اثنين وعشرين قرناً على تاريخ ظهوره فوق مسارحها وفى دور تمثيلها . وفى هذا العصر الأثينى ظهرت مآسى « إسخيلوس » و « سوفُكليس » و « أوريبيديس » التى كانت أحد العوامل الهامة فى

خلود أثينا ومأتى إلهام كتاب النهضة ومأساوى القرن السابع عشر فى أوروبا . وليست مآسى « فدر » و « أندروماك » و « ألكسندر » و « إيفيجينى » وغيرها من فرائد « راسين » كبير مأساوى فرنسا إلا برهاناً ناصعاً على صحة ما نقول . وفى ذلك العصر أيضاً ظهرت مهازل « أرستوفانيس » التى ظاهرها فيه الابتسام والسخرية ، وباطنها حكم عالية ، وعظات بالغة كان لها فى تهذيب الشعب وتثقيفه أثر واضح . وفوق ذلك فهى التى أوحت إلى « مُلير » أن يكتب مهازله الفاتنة التى استفاد منها العالم الحديث فوائد جليلة الخطر وإن كانت فى أسلوب ضاحك ساخر . ويمتاز ذلك العصر الأثينى كذلك بأن النثر قد أصبح فيه أداة قوية صالحة للكتابة والخطابة والبحث الفلسفى ، والتحليل النظرى ، يصول فيه الفلاسفة ويجولون ، ويهرج به الخطباء ويسفسطون .

وأخيراً إن ذلك العصر هو الذى كشف العقل فيه نفسه ، ووضع فيه مناهج التفكير ومعيار العلم ، وبلغ فيه النظر آواجه الممكنة فى تلك الأزمنة .

وبالإجمال إن ذلك العصر أجل من أن يسحب عليه الدهر ثوب النسيان ، لأن « إسخيلوس » و « سوفكليس » و « أوريپيديس » و « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » و « پيركليس » و « ديمُستينيس » «Démosthénès» و « اكسينوفون » كل أولئك غير قابلين للنسيان بطبائعهم ، وهم ليسوا إلا مرآة هذا العصر الصافية الأمينة التى ينعكس عليها كل ما فيه من ثقافة وعرفان .

أما العصر الرابع ـ وهو العصر الاسكندرى ـ فقد امتد من أواخر القرن الرابع إلى أواخر القرن الثانى قبل المسيح ، إذ لم يكد الاسكندر المقدونى يطأ أرض مصر ويأمر بتأسيس مدينة الاسكندرية ، ولم يكد البطالسة يجلسون على عرشها حتى بدأ ظل الثقافة العالية يتقلص من فوق أرض أثينا سالكاً طريقه فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط إلى أرض الفراعنة : ومنذ ذلك الحين صارت مدينة الاسكندرية ـ وهى عاصمة وادى النيل فى تلك الأزمان ـ مدرسة العالم كله فى الشرق والغرب ، وأضحت الهدف المقصود لكل متعطش إلى العلم

والاستنارة العامة . ولقد كانت هـذه العظمة تتمثل على الأخص فى معاهدها الفلسفية الراقية ومكتبتها الفخمة التى ارتفعت على أيدى ملوك البطالسة حتى بلغت الأوج ووصلت إلى القمة التى كان أولئك الأقيال المخلصون لنصرة الحركة العقلية فى البلاد يحلمون لها بها منذ أن ولوا عرشها .

إمتاز هذا العصر بأن عبقرية الأدباء قد اتجهت فيه إلى النظر والبحث حتى فى المواطن التى كانت فى العصور القديمة أبعد ما تكون عن البحث . وقد اقتادها هذا الميل إلى العناية بالفلسفة والرياضة والنقد ووضع القواعد النحوية ، وإخضاع كل المنتجات الأدبية لمناهج الفكر بهيئة انتهت إلى محو السذاجة الأولى من شعر هذا العصر محواً تاماً .

أما العصر الخامس ـ وهو الذى يدعوه الأدباء بالعصر الرومانى ـ فقد امتد من القرن الأول قبل المسيح إلى أوائل القرن السادس بعده ، وكان أقل ازدهاراً من العصور السالفة التى أشرنا إليها بايجاز ، إذ لم يكد تيار السياسة الرومانية القوى الجارف يطغى على بلاد الهيليين حتى اكتسح من فوق أرضها تلك المصابيح التى طالما أنارت السبل المظلمة أمام العالم الغربى القديم الذى كان يتخبط فى ليل دامس من الجهل والوحشية ولاسيما الأمة الرومانية فهى أول أمة غمرتها المعارف الهيلينية وأفاض عليها الهيلين من ثقافتهم ومدنيتهم ما جعلها تفاخر العالم القديم بأنها طليعته إلى ميادين النور والعرفان ، وتُدِل على العالم الحديث بأنها أستاذته فى القوانين والدساتير وكل أنواع التشريع ، وليس الفضل فى هذا كله عائدا إلى غير الأمة الهيلينية كما شهد بذلك التاريخ النزيه .

ومهما يكن من الأمر فإن الأدب الهيلينى قد حيل بينه و بين التلألؤ فى سماء الحياة منذ ذلك الحين الذى أجلست فيه الأقدار « روما » على عرش التفوق والسيادة على ماعداها من العواصم والأمصار ، ولم تعد الثقافة الهيلينية تنجب كبار العباقرة والممتازين فى الأدب كما كانت الحال قبل ذلك العصر ، وإنما أضحى كل ماتنتجه هو بضعة أشخاص ممتازين بمواهب محدودة من حين إلى حين ، ولكن الذى سطع فى ذاك العصر سطوعاً لا بأس به

هو الفلسفة والتاريخ . فمن أشهر أعلام الفلاسفة فيه : « إپيكتيتيس » و « أفلوطين » و« فُرْفِرْيوس» «Porphyrios» و«الاسكندر الأفروديزى «Thémistios» و «تيمستيوس» و « شمپليسيوس » «Simplicios» وفى التاريخ « استرابون » «Strabon» و «فلوترخوس» «Polybos» و « پوليپوس». ولا يفوتنا هنا أن نشير أيضاً إلى آباء الكنيسة فان لهم فى هذا العصر منتجات قيمة لايصح الإغضاء عنها بحال. ومن أعلامهم «Clemens d' Alexandrie» كليمَنْس الاسكندرى و « أوريجينيس » «Origenés» والقديس « جان كريزستوم» « Jean Chrysostome » أى ذو الفم الذهبى .

ومازالت هذه الأزمة العقلية تخنق بلاد الهيلين وتحكم أظفارها فى عنقها حتى قضت عليها قضاءها الأخير فى سنة ٥٢٩ م حين أعلن الأمبراطور « جُستنيان » إغلاق كل المدارس الوثنية الحرة فى أثينا

أما وقد أشرنا إلى هذه العصور بايجاز فإننا نشرع الآن فى بيان كل عصر منها فى موضعه من أجزاء هذا المؤلَّف الشامل .